مدينة بازل، يناير ٢٠٠٢

الجزء الأول

بولندا ملاذ لليهود

obeikandl.com

حماية اليهود من الاضطهاد

رأي بنو إسرائيل كيف تجددت معاناتهم باطراد، وازدادت أعباؤهم، وتفاقم الظلم الذي يتعرضون له، وناؤوا بثقل العبودية وأدى حكم الشر إلى كارثة تلو الأخرى وتعاقب بسببه الطرد تلو الآخر حتى إنهم لم يعودوا يستطيعون تحمل هؤلاء الذين يكرهونهم. لذا، فقد ارتحلوا وسعوا وتلمسوا سبل العالم لاكتشاف أي السبل عليهم أن يسلكوا لينعموا بالسلام. ثم جاءت رسالة من السماء أن اذهبوا إلى بولندا! هكذا ذهبوا إلى بولندا، وأهدوا للملك جبلاً من الذهب واستقبلهم الملك بحفاوة شديدة. وتبناهم الرب كأبنائه ومنحهم الرحمة في أعين الملك والأمراء ... غير ان هناك أيضاً من الأسباب ما يؤيد فرضية أن بني إسرائيل كانوا قد عاشوا في بولندا منذ عصور سحيقة، نعموا فيها بالرخاء في ظل الحكمة وتحت سيادة القانون. بمقدم اليهود من مملكة الفرانكيين، وجدوا في بولندا غابة حفرت على جذوعها كتابات– على كل شجرة نقشت رسالة من التلمود. هذه هي غابة كاوزين التي تؤدي إلى لوبلن. وهناك من يعتقد أن اسم البلد يرجع إلى مصدر مقدس: لغة بني إسرائيل. لأن بني إسرائيل حين وصلوا إليها قالوا "بو– لين" أي "أقضوا ليلتكم هنا!" وقصدوا بذلك "نريد قضاء ليالينا هنا حتى يعيد الرب جمع شتات شعب إسرائيل." هذا ما أخبرنا به آباؤنا![1]

تعبر هذه الأسطورة عن الأمل الذي علقه اليهود على بولندا، وهو الهدف الذي بدا لوقت طويل أنه قد تحقق. كما تشتمل أيضا على سبب هجرة اليهود إلى الشرق؛ ألا وهو الاضطهاد الذي عانوا منه في وسط أوروبا. كما توضح سبب اهتمام الأمراء البولنديين

[1] [بولندا- أسطورة الوصول (وصول اليهود)] ، و[كتاب اليهود البولنديين]، المحررون س. ج. أجنون وأهرون إلياسبرج (برلين ١٩١٦)

باليهود: أموالهم. منذ أعمال العنف التي اندلعت بسبب الحملة الشعواء الأولى عليهم، بحث اليهود من بعض مدن ألمانيا وبوهيميا عن ملجأ في بولندا. أصدر بوليسلاف الورع (١٢٢١– ١٢٧٩) ميثاق كاليسكي الذي أصبح فيما بعد أساسا لكل القرارات الحمائية التي صدرت في أوقات لاحقة لصالح اليهود.

قام هذا القانون على الامتياز الذي منحه الإمبراطور فريدريك الثاني لليهود عام ١٢٣٦ وما تلاه من امتيازات. أعلن هذا الامتياز اليهود "أقنان بلاط" الأمير (انظر الصفحة ٩) الذي فرض عليهم دفع مبالغ مالية له والذي وعدهم في المقابل بحمايتهم وكفل لهم الحرية فيما يتصل بأنشطتهم الاقتصادية. علاوة على ذلك منحهم بوليسلاف حق تشكيل جماعات تتمتع بالحكم الذاتي. كانت أية هجمات ضد اليهود– أو حتى توجيه اتهامات القتل الطقسي لهم– تلقى أشد عقوبة من جانب الأمير. أعاد الملك كاسمير الثالث– كاسمير العظيم (١٣١٠– ١٣٧٠)– أعاد التصديق على هذا الميثاق مرة أخرى عام ١٣٣٤، ومدد نطاقه ليتجاوز بولندا العظمى ليشمل كل الأراضي الخاضعة لسلطته. قام كاسمير بتشجيع توافد المهاجرين اليهود الذين فروا من وسط أوروبا– وأيضا من سيليسيا التي كانت قد أصبحت في ذلك الوقت إقطاعية ببوهيميا. ربما كان كاسمير يرى أن هناك فرصة لاستغلال اليهود – الذين سيشعرون بالضرورة أنهم مدينون له – في موازنة قوة المواطنين الألمان ذوي السيادة المستقلة في المدن. كان للملك ايضا "مصرفي بلاط" يهودي يدعى لوكو كانت توكل إليه جباية الضرائب وإدارة استخراج الملح. في ذاك الوقت، كانت جباية الضرائب وقطع القوالب وسك العملة أعمال يمارسها اليهود في بولندا على نطاق واسع. في عام ١٣٦٤ و١٣٦٧، أصدر كاسمير قرارات جديدة لضبط المزيد من المجالات المتعلقة بالحياة اليهودية. بهذه الطريقة، لم يعد اليهود خاضعين للقانون الألماني وخضعوا لسلطان

الفويفود – ممثل الملك في تلك المناطق. في الحالات التي تنطوي على اتهامات خطيرة، كان اليهود يخضعون لسلطان الملك. كان هذا الإجراء متسقا مع وضع اليهود كأقنان البلاط الملكي. حاز اليهود أيضا امتيازات اقتصادية، منها الحق في تملك الأراضي والمنازل في كل من المدن والقرى. أكد على كل هذه الامتيازات الملوك الذين خلفوا كاسمير. شكلت هذه الوثائق أساس الوضع القانوني لليهود حتى تقسيمات بولندا بنهاية القرن الثامن عشر.

في ليتوانيا– التي ارتبطت منذ عام ١٣٨٦ ببولندا باتحاد شخصي– لعبت الامتيازات التي منحها فيتاوتاس فيتولد (ابن عمومة الملك فلاديسلاف جاجيلو وكبير الأمراء منذ عام ١٣٩٢ وحتى ١٤٣٠) دورا مشابها وقد منحت هذه الامتيازات للجماعات اليهودية الثلاثة الموجودة في تراكاي وبرست وجرودنو.

بموجب هذه الوثيقة نسمح لهم [اليهود– هـ. هـ.] بشراء البضائع بجميع أنواعها وبيع المشروبات الكحولية بجميع أنواعها – سواء صنعوها بأنفسهم أو قاموا بشرائها– في منازلهم إذا قاموا بدفع ضريبة سنوية. يسمح لهم– مثلهم مثل المواطنين في المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي– بممارسة عمليات البيع والشراء في كل من الأسواق والحوانيت وفي جميع مجالات التجارة. يجوز لهم– مثلهم مثل مواطني المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي– حيازة الحقول والأراضي طالما قاموا بدفع المبالغ اللازمة لخزانتنا.[٢]

بصفة اساسية، استتبع هذا المساواة في الحقوق بين اليهود وغير اليهود، على الأقل في المجال الاقتصادي. لم يدل المعارضون لهذه السياسات بداوهم لفترة طويلة. بيد أن الظروف التي عاش فيهااليهود في الكومنولث البولندي–الليتواني لا يمكن على الإطلاق وصفها بأنها مثالية. في الواقع، يعود تاريخ يهود شرق أوروبا إلى تاريخ

[٢] (ميثاق جرودنو)

طردهم من إسرائيل، وتجوالهم في الكثير من الدول، وتعرضهم للاضطهاد مرة أخرى. اتجهت أضخم هجرات اليهود من جهة إلى شبه جزيرة أبيريا (بالعبرية: السيفاراد) ومن جهة اخرى إلى وسط أوروبا خاصة ما أصبح لاحقا ألمانيا (بالعبرية: أشكيناز). قدّر لليهود الأشكيناز والسفاردة أن يلعبوا دورا هاما في أوروبا الشرقية. هناك دلائل على وجود تجار يهود من الغرب في أوروبا الشرقية منذ القرن الثامن. كما توافد إليها تجار آخرون من الإمبراطورية البيزنطية. قبيل نهاية القرن الثامن، تحول الخاقان العظيم للخزر، أوبيديا، و المقربون له من الطبقة العليا لمجتمع الخزر إلى الديانة اليهودية، الحدث الذي أثار ضجة في أنحاء أوروبا.

أدخل فكرة إقامة المناظرات بين ممثلي الديانات المختلفة، الفكرة التي يعتقد أنها أدت إلى قرار الخاقان العظيم الذي جاء لصالح اليهودية، على يد فيلسوف الدين الشهير يودا هالفي (تقريبا ١٠٧٥– ١١٤١) في كتابه "سفر الخزر". لابد وأن اعتبارات السياسة الخارجية كانت حاسمة في هذا الصدد. أراد أوبيديا التأكيد على استقلال الخانات ونديتهم فيما يتصل بالإمبراطورية البيزنطية المسيحية والخلافة الإسلامية. ما بين القرنين السابع والعاشر، أقام الخزر إمبراطورية شاسعة امتدت من بحر أرال إلى الشمال الغربي للبحر الأسود ومن بحر القوقاز إلى الشمال. لم يعن اعتناق الجزء الأكبر من الدوائر الحاكمة للديانة اليهودية أن القبائل المختلفة للإمبراطورية تخلوا عن دياناتهم. في الواقع، يبدو أن الاختلافات الداخلية ازدادت حدة. عند إقامة كييف الروسية — أول دولة روسية– بعد عام ٨٦٠، سرعان ما دخلت الدولتان في صراع. بين عامي ٩٦٤ و٩٦٨، قام أمير كييف سفياتوسلاف أخيرا بهزيمة الخزر الذين أصابهم الوهن من جراء الحروب الأهلية وهجمات البشكنس. يبدو أن جزءا من يهود الخزر بقوا في مناطق

الاستيطان الخاصة بهم لأن هناك دلائل على ظهور حركة مشيحانية بين يهود الخزر بشيه جزيرة القرم. عاد آخرون إلى بلاد القوقاز وزادوا من عدد اليهود الذين كانوا قد هاجروا إلى هناك من فارس في وقت سابق. شكلوا أساس "يهود الجبل" الذين يعيشون حتى في يومنا هذا في جماعات مستمسكة بالتقاليد. استقر يهود الخزر أيضاً في كييف ومدن أخرى بكييف الروسية وبولندا. في كييف ببدايات العصور الوسطى كان هناك "بوابة يهودية" وعندما اندلعت الاضطرابات في عام ١١١٣ بعد وفاة الأمير غير المحبوب سفياتوبولك الثاني، وقع اليهود أيضاً ضحايا للغضب الشعبي. فقد مثلوا الأمير في المعاملات التجارية كما حازوا حق احتكار الملح؛ الأمر الذي أثار ضدهم مقت الشعب. يمكن تمييز طقطقة الصراع هنا.

كان التدفق الهائل للمهاجرين اليهود إلى أوروبا الشرقية مرتبطاً بالتغيرات التي اعترت وضعهم بأوروبا الغربية. في البداية، قام المسيحيون – الذين انتشرت بينهم مفاهيم معادية لليهود في وقت مبكر نسبياً نتيجة للتنافس الديني– بإجبار اليهود على العمل بالأنشطة الاقتصادية– على وجه الخصوص جباية الضرائب وإقراض الأموال بالفائدة– وهي المجالات التي كانوا لا يستطيعون الاشتغال بها لأسباب دينية. بيد أنه بعد ذلك أصبح من الواضح كمّ الأرباح الذي يمكن جنيه من الاشتغال بهذه المجالات وبعد . .

أن اكتسب اليهود المهارات الأساسية اللازمة للعمل بها، سعى المسيحيون للحدِ من الفرص السانحة أمام اليهود. منذ القرن الحادي عشر فصاعداً تراكمت أشكال المحظورات على اليهود، حتى وصل الأمر في النهاية إلى اضطهاد اليهود وطردهم. فلم يعد هناك حاجة إلى اليهود. اجتاحت موجة عاتية من الاضطهاد ألمانيا ووسط أوروبا نتيجة للحرب الأولى الشعواء على اليهود في عام ١٠٩٦ ومرة ثانية أثناء الحرب الثانية في ١١٤٦– ١١٤٧. في وقت لاحق وصلت

أعمال العنف ضد اليهود إلى أوجها عام ١٣٤٨– ١٣٤٩ حينما اجتاح الموت الأسود البلاد. سعيا لمعرفة أسباب هذا الوباء ، جعل الناس من اليهود "كبش فداء". سرى الإعتقاد بأن اليهود سمموا مجاري المياه والآبار. هنا أيضا نجد نمطا جدليا ينتشر في التاريخ المتأخر أيضا ويطرح إشكالية أساسية في مسألة تحليل الأقليات: الأفعال والأحداث التي لا يمكن فهمها بوضوح يميل الناس إلى إرجاعها للأشخاص الذين يتسمون بالغرابة والذين تحوم الشكوك حول عقائدهم ولا تلق أفعالهم القبول الشعبي.

استفاد كل من دائني اليهود ومنافسيهم الاقتصاديين في عام ١٣٨٩ حين ثار أهل براغ المسيحيون عند اتهام اليهود بأنهم دنسوا حرمة عيد الفصح بقيامهم بمهاجمة بعض القساوسة فأحرق أهل براغ الجيتو اليهودي في المدينة القديمة وقتلوا جزءا كبيرا من السكان ونهبوا ممتلكاتهم. لم يكن هذا هو الهجوم الوحيد على اليهود بالمدينة. كانت الجماعة اليهودية في براغ في ذلك الوقت إحدى أكبر الجماعات اليهودية في أوروبا وأكثرها ازدهارا. في النصف الأول من القرن الثالث عشر، تم توجيه اتهامات القتل الطقسي إلى اليهود كمبرر لاضطهادهم. في عيد الفصح اليهودي، سرت مزاعم بأن اليهود ذبحوا أطفالا مسيحيين للحصول على الدماء الضرورية لإقامة بعض الشعائر. وقد دحض التحقيق الذي أجراه الإمبراطور فريدريك الثاني في عام ١٢٣٥ في أعقاب جريمة قتل طقسي مزعومة هذا الاتهام. بيد أن هذا الدحض لم يكن له الأثر المرغوب مثله مثل البيانات البابوية التي كانت تصدر من آن لآخر ضد توجيه مثل هذه الاتهامات لليهود أو ضد إثارة الشكوك بأنهم يسممون المجاري المائية. فقد ظل الاعتقاد في هذه الأساطير قائما حتى الماضي القريب. فريدريك الثاني الذي كان مهتما باليهود بصفة أساسية لأسباب اقتصادية أعلنهم "أقنانا للبلاط" في عام ١٢٣٦. كان هذا

الإجراء يهدف إلى حمايتهم – وفي ذات الوقت زيادة خدماتهم المقدمة للإمبراطور– الأمر الذي ضاعف من الأموال المكدسة بخزانته. نتيجة لذلك، خضع اليهود لقوانين خاصة وهو التطور الذي كان متوقعا منذ فترة. بإخضاع اليهود لحالة قانونية خاصة، ازداد احتمال إصدار عدد متزايد من القرارات غير العادية. نتيجة لذلك، عاش اليهود في ظروف تتسم بالريبة الشديدة والاعتماد على الآخرين. فقد قام الإمبراطور برهن أو إقراض أو بيع الحقوق السيادية للكثير من اليهود. من الواضح أن "المكانة الأدنى" لليهود أجبرتهم على الانزواء إلى هامش المجتمع. أصبح اليهود أقلية تحتقرها أغلبية المجتمع. من أبرز القوانين الخاصة التي خضع لها اليهود فرض ضرائب خاصة عليهم والقوانين المتعلقة بالملابس التي تشمل كل شيء بدءا من القبعات المستدقة وحتى ما يطلق عليه "الشارة اليهودية" وهي حلقة ذهبية تعلق على رداء للرجال وحجاب بخطوط زرقاء للنساء. بهذه الطرق كان من الواضح أن اليهود أبقوا خارج النظام الاجتماعي. الأمر الذي يعد ذي أهمية خاصة في هذا الصدد هو المجمع اللاتراني المنعقد عام ١٢١٥ ومجلس بازل عام ١٤٣١ ، وبالنسبة لبوهيميا المجمع الكنسي في براغ عام ١٤٤٩. كانت قوانين الملابس لليهود تقوم على حقيقة أن ارتداء اليهود والمسيحيين لنفس الملابس قد أدى إلى ذلك الوقت إلى إقامة علاقات جنسية بين التابعين للديانتين عن طريق الخطأ. صاحب هذه الإجراءات إلزام اليهود بالتقيد بشوارع ومناطق معينة. في الأساس كان هذا التقييد يحدث تلقائيا لأسباب تجارية– وبالمثل في الشوارع التي يقطنها الحرفيون المسيحيون– لتيسير الحياة الدينية وللحفاظ على هويتهم. بعد سن هذه القوانين، أصبح الوصول إلى المناطق التي يسكنها المسيحيون أصعب عن ذي قبل نظرا لأنه كان ينبغي إغلاق

"شوارع اليهود" في المساء. منذ القرن السادس عشر – على نسق نموذج فينيسيا لعام ١٥١٦– تم قبول مصطلح "الجيتو".

في معظم الدول الأوروبية لم تقصر الشعوب أنفسها على الاضطهاد والقوانين الخاصة. شكلت عمليات الطرد الشاملة والترحيل لليهود النتيجة –المؤقتة– لهذه التطورات. بدأت إنجلترا وجنوب إيطاليا (باستثناء صقلية) هذه العملية في عام ١٢٩٠ و– بعد عدد من المحاولات المختلفة– تبعها فرنسا (١٣٩٤) وإسبانيا (١٤٩٢) والبرتغال (١٤٩٦– ١٤٩٧) ونابلس (١٥٠٣) ومع بعض الاستثناءات حذت حذوهما الولايات البابوية (١٥٩٣) وتلتها بعض الولايات الإيطالية. تناثر اليهود المطرودون في أنحاء مختلفة مرة أخرى. كانت أوروبا الشرقية– واليشيا والمجر على سبيل المثال– مقصد اليهود السفاردة.

لم يتعرض اليهود الألمان إلى عمليات الطرد الشاملة التي عانى منها اليهود في بلاد أخرى. ساعد على هذا التقسيم السياسي لألمانيا إلى مقاطعات صغيرة لا حصر لها. كان باستطاعة اليهود إذا ما تعرضوا للاضطهاد في مكان ما العثور على مأوى في منطقة مجاورة. حتى هذا كان سيئاً للغاية. علاوة على ذلك، لم يعد بوسع اليهود منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر الحصول على حقوق المواطنة في الكثير من المدن. كل هذا كان يعني– من قبيل المصادفة– أن تجارة التجزئة بين القرى والمدن ظلت أهم الأنشطة الاقتصادية التي يقوم بها اليهود وأنهم حصلوا لأنفسهم على دور مركزي كوسطاء. رغم أن تاريخ اليهود في العصور الوسطى بأوروبا لا يتسم كله على الإطلاق بالتمييز والاضطهاد – فقد كانت هناك فترات عديدة للتعايش السلمي بعلاقات متبادلة وحتى علاقات ثقافية طيبة – غير أن وضع اليهود كان محفوفاً بالمخاطر. في حالة نشوب صراع اجتماعي أو انتشار المجاعات أو الأوبئة كان من

الممكن توجيه الاتهامات لليهود بتهم الدم أو القيام بأعمال العنف الدموية في أي وقت. بين عامة الناس كان الاعتقاد السائد بأنه قد يكون لليهود يد في هذه الأحداث وكقاعدة عامة ترسخ هذا الاعتقاد على يد الكنيسة. نتيجة لذلك، فليس مثيرا للدهشة أن المزيد من اليهود- الأشكيناز من ألمانيا والمناطق المجاورة- استجابوا لنداء حكام بولندا الذين قدموا لهم وعودا بتقديم الحماية الفعالة والامتيازات. خصوم اليهود. كانت الكنيسة الكاثوليكية في الطليعة فيما يتصل بالإجراءات المضادة لليهود. بناء على نسق التجمع اللاتراني المنعقد عام ١٢١٥، مجلس وروكلو- تحت سيطرة أحد فروع أسرة بياست الحاكمة- قرروا في عام ١٢٦٧ أنه يتعين على اليهود الإقامة في مناطق منفصلة عن المسيحيين وأن يقوموا بارتداء شارة مميزة على زيهم. لم يسمح لليهود بأن يتولوا أي مناصب عامة أو تولي أية مراكز يكون فيها المسيحيون مرؤوسيهم. كان يُفضل منع اليهود من جباية الضرائب والرسوم المالية وسك العملات؛ الأمر الذي كان من شأنه حرمانهم من أهم مصادر الدخل. رغم أن المجالس المنعقدة بعد ذلك أعادت التأكيد على هذا القرار، لم تلق هذه الإجراءات نجاحا عمليا كبيرا. كان اليهود ذوي أهمية كبيرة عند الحكام البولنديين- بصفة رئيسية من أجل أموالهم- تمنعهم من القيام بأي تحجيم لأنشطتهم. من ثمّ، لا عجب في أن الهجرة اليهودية إلى بولندا استمرت. في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، نجد المزيد من الدلائل على وجود مناطق خاصة باليهود في المدن البولندية: ١٣٥٦ في لفيف (لمبرج)، في عام ١٣٦٧ في ساندوميرز وزفي عام ١٣٨٦ في كاسمير بالقرب من كراكو وغيرها من المدن في بولندا العظمى وكوجافيا وبومير ينيا وجاليشيا الحمراء. تنامت المعارضة لليهود بما يتناسب مع استيطانهم ونجاحاتهم الاقتصادية. شارك الكنيسة الكاثوليكية عداءها لليهود التجار المسيحيون الذين شعروا

بالتهديد من المنافسة اليهودية. طالبوا بمنع اليهود من إقراض الأموال بضمانات عقارية، أو خطابات ضمان التصرف الآمن وبوجه عام وضع قيود على أنشطتهم المختلفة. ليس من قبيل الصدفة أن هذا الوقت شهد توجيه سلسلة من الاتهامات بجريمة الدم وارتكاب بعض الجرائم في حق الشعب المضيف. في عام ١٤٠٧ حين قام أحد القساوسة بإلقاء موعظة من فوق منبر كنيسة القديسة باربرا في كراكو مفادها ان اليهود قد قاموا بقتل طفل مسيحي واستخدموا دماءه في القيام ببعض الطقوس الدينية، قام الحشد الثائر باجتياح منازل اليهود ونهبها وإحراقها وقتل الكثير من سكانها وقاموا بتعميد عدد لا حصر له من الأطفال اليهود قسرا.

وصلت هذه الحملات إلى أوجها حين وصل الراهب الفرانسيسكي جون كابيستران- الذي تمتع بسلطات محاكم التفتيش- إلى بولندا عام ١٤٥٣. سمعة هذا الواعظ- الذي كان من الواضح أنه يتمتع بمواهب بلاغية عظيمة- بوصفه "السوط المسلط على اليهود" كانت قد سبقته إلى بولندا: فقد أثار هذا الراهب الخراب في إيطاليا والنمسا وبافاريا وسيليسيا وكان لدعايته المثيرة للجماهير أثر مدمر حتى في بوهيميا وموراڤيا. نجح كابيستران في كسب تأييد الكاردينال البولندي زبجنيف أوليسينكي وتوحيد مطالب رجال الدين والمواطنين المسيحيين إلى جانب حليف آخر وهو الأعضاء الذين أصابهم الفقر من صغار النبلاء الذين كانوا دائنين لليهود. تعرض الملك كاسمير الرابع (١٤٢٧- ١٤٩٢) الذي أعاد التأكيد على امتيازات اليهود لضغط هائل- خاصة حين وعظه كابيستران قائلاً: "انتبه إلى أن إهمالك لتحذيراتي لا تجلب عليك عقاب السماء!" فتنازل كاسمير وفي عام ١٤٥٤ أعلن أن الامتيازات لا تتعارض مع القانون السماوي والدستور.

شعر خصوم اليهود بأن كل هذه الأحداث عززت من موقفهم. في عام ١٤٦٣، قام البولنديون، الذين أرادوا الاستجابة لنداء بيوس الثاني لشن حرب شعواء على اليهود مرة أخرى، بنهب منطقة كراكو اليهودية. في عام ١٤٦٩ تم نقل المنطقة اليهودية ليحل محلها مبنى الجامعة. في عام ١٥٦٤ في بوزنان جرت أعمال عنف في أعقاب اندلاع حريق. في كلتا الحالتين، بعد إندلاع أحداث العنف كان على السلطات المحليات اليهودية دفع غرامة. كان لمحاولات المدن الحصول على امتيازات بألا يتسامحوا مع اليهود أثر على المدى الطويل. حدث هذا بالفعل في كثير من المدن، غير أن اليهود كثيرا ما تحايلوا على هذا الحظر. واصلت برومبرج هذا النهج في بداية القرن الرابع عشر. في عام ١٤٨٣ أخرج اليهود من وارسو وفي عام ١٤٤٩ رضخ يهود كراكو تحت وطأة الضغوط المطردة وانتقلوا إلى ضاحية كاسمير. ظلت أبواب كراكو مغلقة أمام اليهود كمنطقة سكنية مع بعض الاستثناءات القليلة حتى عام ١٨٦٧. بنهاية القرن الخامس عشر كان جميع اليهود قد طردوا من ليتوانيا رغم أنه سمح لهم بالعودة مقابل دفع رسوم باهظة؛ يبدو أنهم كانوا لا يزالون ذوي نفع. كان الوضع غاية في الصعوبة بالنسبة ليهود مملكة بروسيا – التي أصبحت فيما بعد غرب بروسيا حول تورن وجدانسك (دانزج) وإلبلاج (إيلبينج)– تقليد كان ليستمر إبان عصر الإصلاح بين اللوثريين البروسيين. المزايا التي منحت لعشرين مدينة في القرن السادس عشر كانت التطور الطبيعي لعمليات الطرد الفردية. مما يثير الاهتمام أنه في بعض المناطق أو الضواحي أو حتى في مدن بأكملها، نجح اليهود في الحصول على امتياز عدم التسامح مع المسيحيين. استطاعوا هذا على سبيل المثال في عام ١٥٦٨ في مدينة كاسمير وفي عام ١٦٣٣ الجماعة اليهودية في مدينة بوزنان وفي عام ١٦٤٥ في جميع الجماعات

اليهودية في ليتوانيا . هناك شك في أن تكون هذه الإجراءات وفرت ظروفاً مواتية للتعايش السلمي بين اليهود والمسيحيين أم لا .

في ١٥٣٨، فرض المجلس التشريعي البولندي في بيوتركوف – تحت ضغط من بعض أفراد طبقة صغار النبلاء الغارقين في الدين– حظرا يمنع اليهود من جباية الإيرادات العامة للدولة. قامت أعلى هيئة يهودية تتمتع بالإدارة الذاتية بالتصديق على هذا الإجراء في لوبلن عام ١٥٨١ ومنع جباية الضرائب عن مصانع الملح وسك النقود وجمع الرسوم المفروضة على الجعة الحاضرة والرسوم الجمركية والمكوس في بولندا الصغرى وبولندا العظمى وفي مازوفيا – وإلا تعرض المخالف للحرمان الكنسي. " أثار الناس التلهف على جنى الربح والثراء من المخاطر – لا قدّر الله– التي تتعرض لها العقارات المؤجرة الضخمة مما أطلق العنان لخطر كبير على الجميع [اليهود]. [٣]

لقد تعلموا من التجربة وأرادوا أن يسبقوا خصومهم. في ذلك الوقت، بسبب عملية مكثفة مناهضة للإصلاح قام بها الجيزويت (اليسوعيون)، ثار مناخ معاد لليهود مرة أخرى. من أسباب هذا بعض الحالات الفردية التي تحول فيها مسيحيون إلى الدين اليهودي وتوجيه الاتهام إلى اليهود بأنهم حرضوا الهوسيتيين (أتباع يان هس المفكر الديني والفيلسوف والمصلح التشيكي) على النطق بالهرطقة وحركات المتهودين. حدث هذا في القرن الخامس عشر كمزيج من العقلانية اليهودية والمسيحية في موسكو ونوفجورود وانتشر هذا المدّ في القرن السادس عشر إلى الاتحاد البولندي– الليتواني. وجهت المزيد من الاتهامات إلى اليهود بارتكاب جرائم الدم أو سرقة رقاقات خبز القربان المقدس من أجل الحصول على الدماء البشرية. كانت هذه التهمة تعني لليهود المتهمين الموت بالخازوق.

---

[٣] ماريان فوكس وزيجمونت هوفمان وموريسي هورن وجيرزي توماس تسيفيسكي [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة] (وارسو، بلا تاريخ [حوالي ١٩٨٣])

نجاح اقتصادي

رغم كل هذه الإجراءات المناهضة لليهود، نجح غالبية اليهود في مملكة بولندا العظمى في التطور بحرية إلى حد ما. في عام ١٥٦٥ صرح ممثل بابوي من بولندا بالتالي:

"في هذه الأراضي توجد أعداد هائلة من اليهود لا يتم ازدراؤهم كما يحدث في مناطق أخرى. إنهم لا يعيشون حياة المذلة والهوان، كما لا يتم قصرهم على الوظائف المهينة. فهم يمتلكون الأراضي ويعملون بالتجارة ويدرسون الطب والفلك. يملكون ثروة كبيرة ولا يعتبرون فقط أناسا محترمين بل غالبا ما يتمتعون بالسلطة أيضا. إنهم لا يرتدون أية شارات مميزة ويسمح لهم حتى بحمل السلاح. بإيجاز، إنهم يتمتعون بجميع الحقوق المدنية."[٤]

حتى وإن كان هذا التصريح مغالياً بعض الشيء في الصورة الإيجابية التي يرسمها، فإنه رغم ذلك يوضح بعض النقاط الهامة. في الواقع، في بولندا كان من بين اليهود ملاك أراضي ومزارعون- في ذاك الوقت لم يكونوا يتعرضون للقيود المألوفة في أوروبا الغربية. تصرف بعض أغنياء اليهود كمنظمين لمناطق الاستيطان، مؤسسين بذلك قرى بأكملها. في حين قام آخرون بتأجير الأراضي والقرى. إضافة إلى ذلك، مارس الكثير من اليهود الزراعة كعمل إضافي خاصة في المدن الصغيرة مثلهم مثل أهل المدن المسيحيين الذين كانوا يزرعون قطعة أرض صغيرة. عملت مجموعة أكبر من اليهود بالتجارة لتوريد البضائع إلى إخوانهم في الدين. كان هذا ضروريا بسبب التعاليم الدينية اليهودية الحاسمة، التي تجعل من الضروري وجود قصابين ومصرفيين وخياطين خاصين باليهود. تطرقت مصادر مختلفة إلى تعامل المسيحيين مع حرفيين من اليهود. مما لابد وأنه أثار

[٤] ماريان فوكس وزيجمونت هوفمان وموريسي هورن وجيرزي توماس تسيفيسكي [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة] (وارسو، بلا تاريخ [حوالي ١٩٨٣])

الاحتجاجات وخاصة من أعضاء النقابات العمالية الذين كانوا يغارون من احتكار اليهود لهذه الأعمال. في كثير من المدن، استطاعت النقابات العمالية أن تجبر الحرفيين اليهود على الحد من أنشطتهم أو على الأقل على دفع رسوم أعلى مما يدفعها المسيحيون.

غير أنه لا يجب علينا المبالغة في تقدير حجم عواقب كل هذا. فغالبا ما استطاع اليهود التحايل على قوانين النقابات العمالية. نتيجة لذلك، مثلهم مثل الحرفيين المسيحيين، تم تصويرهم كعمال غير بارعين؛ الأمر الذي لا يمكن اعتباره على الإطلاق مؤشرا على جودة أعمالهم. بينما لم يتمتع اليهود الذين أقاموا بالمدن التابعة للكنيسة بأية حقوق، كان الملك يواليهم بالحماية في المدن التابعة له كما فعلت أيضا طبقة النبلاء العليا. سعى الملك بهذه الطريقة لتطوير المدن التابعة له على حساب رعاياه الآخرين. حتى منتصف القرن السادس عشر، اشتغل اليهود تقريبا بجميع الأعمال التي تحتاج إلى مهارة. في كراكو ولفيف وبرزميسل وغيرها من المدن كان لليهود النقابات العمالية الخاصة بهم.

في ذاك الوقت، كانت محاولات التجار المسيحيين لوضع قيود على الأنشطة التجارية لليهود لا تلق نجاحا. في تجارة الجملة، كان يفترض باليهود الاقتصار على سلع معينة بينما اراد التجار المسيحيون إخراجهم من مجال تجارة التجزئة تماما. نظرا لأن الملك والكثير من الطبقة العليا للنبلاء منحوا تأييدهم لليهود، كان اليهود على الدوام قادرين على التأكيد على حقوقهم. على رأس القائمة كان هناك تجار الجملة بصلاتهم التي أقاموها عبر المسافات الطويلة مع أوروبا الغربية وأيضا مع اليهود الشرقيين من بولندا بصفة عامة. شارك تجار الجملة من اليهود في الأسواق الكبيرة التي كانت تقام في تلك الفترة في فينيسيا وفلورنسا وليبزج وهامبورج وفرانكفورت وجدانسك. منذ القرن السادس عشر، اسس اليهود شركات

للمعاملات التجارية من أجل الحصول على رأس المال الكافي. أحياناً كان اليهود والمسيحيون يجتمعون لإنشاء شركة واحدة. بيد أن غالبية التجار اليهود عملوا كأصحاب حوانيت صغار أو متوسطة الحجم أو كبقالين أو باعة متجولين. غالبا ما عاش هؤلاء عيشة الكفاف . ارتبط نظام البيع الآجل بالتجارة من أجل تأمين التمويل. حين ازدادت التعاملات المالية، اكتسبت هذه التجارة أهمية أكبر. تمركز المقرضون اليهود في البؤرة الاقتصادية لمدينة كراكو وبوزنان وكاليسز، وتدريجيا اخترقوا المناطق الأقل تطورا من الناحية الاقتصادية. لم يكن الملك والنبلاء المستفيدين الوحيدين من مهارات المصرفيين اليهود، بل كان صغار التجار والحرفيين بحاجةٍ إلى الاقتراض كي يفتحوا محال وورش بينما اضطر الفلاحون غالبا إلى سد الهوة بالاقتراض إلى أن يحين موعد الحصاد. من اليقيني أن الديون لم تكن تسدد على الدوام. يفسر انعدام الأمان هذا ارتفاع سعر الفائدة المسموح به لليهود بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر – ليس فقط في بولندا- كي يصل أحيانا إلى ١٠٠% سنويا أو حتى أكثر من هذا. في وقت لاحق فقط تم تخفيض سعر الفائدة بشكل كبير. تأثرت طبقة صغار النبلاء والبرجوازيين الصغار المقيمين في المدن بشكل جسيم بعبء الديون. غني عن القول – أنه نتيجة لذلك أصبح اليهود غير محبوبين. في كثير من الأحيان استثمر اليهود أرباحهم – بقدر الإمكان- في جباية الضرائب والرسوم الجمركية ومكوس الطرق وتأجير مناجم الملح والطواحين ومعامل التقطير ومصانع الجعة والحانات والعقارات التي قاموا آنذاك بتأجير جزء منها لأعضاء الأسرة الفقراء. غير أنهم بهذه الطريقة دخلوا في صراع مع الفلاحين.

البنية الاجتماعية والإدارة الذاتية لليهود إلى جانب طبقة عليا صغيرة من التجار الأثرياء، والرأسماليين وأصحاب العقارات، ظهرت

إلى حيز الوجود أيضاً طبقة متوسطة تضم أعداد كبيرة من صغار التجار ومقرضي الأموال والسماسرة والحرفيين وموظفي الحكومة. كانت الطبقة الأدنى تتمتع بتنوع كبير، فقد تراوح أعضاؤها ما بين رحالة وأصحاب المحال الصغيرة ومساعدين بالمحال متضمنة سائقي العربات الكارّة والحمالين والخدم والباعة الجائلين. كانت الحركة أكبر بين المجتمع اليهودي عن نظيره المسيحي. رغم كل هذا، كانت العوائق التي كانت تقف أمام ارتقاء اليهود للسلم الاجتماعي لينضموا إلى طبقة المواطنين المتمتعين بالحكم الذاتي أو لطبقة النبلاء لا يمكن تجاوزها. بعد حركة مناهضة الإصلاح أصبح من المستحيل تقريباً التغلب على هذا "الفصل العنصري" دون التحول إلى الكاثوليكية. في ليتوانيا كان بإمكان المرتدين عن اليهودية أن ينضموا إلى طبقة النبلاء دون أية إجراءات أخرى، مما مثل إغراء للارتداد عن اليهودية. من حين لآخر كانت تظهر بعض الاستثناءات. على سبيل المثال في عام ١٥٢٥، حصل جابي الضرائب الليتواني ميشيل إيزوفوفيتش على لقب نبيل دون الحاجة إلى التخلي عن اليهودية. فقط في القرن الثامن عشر، استطاعت طبقة النبلاء الليتوانية أن تعيد توحيد صفوفها.

رغم هذا الحراك الكبير، كانت هناك أيضاً توترات اجتماعية بين اليهود. هناك تقارير تعود إلى فترة منتصف القرن السادس عشر فما بعدها بخصوص الصراعات بين الحرفيين اليهود من جهة واليهود الذين استثمروا أموالهم في تجارة الجلود والأنسجة والملابس وبذلك لم يمثلوا فقط تهديداً لاستقلال الحرفيين بل أيضاً لنمط حياتهم. وجه الحاخامات المحبوبون انتقادات لاذعة للأثرياء لاستغلالهم للفقراء وهاجموا الحاخامات الذين تزلفوا للأثرياء.

في بعض الأحيان، وجد المسيحيون واليهود غير الأعضاء بالنقابات العمالية أنفسهم يقومون بعمل مشترك ضد كبار أعضاء

النقابات. كما قام مواطنو المدن ذات الحكم الذاتي من اليهود والمسيحيين بتبني نفس القضية ضد النبلاء. على سبيل المثال في عام ١٥٨٩ توصل اليهود إلى اتفاق مع السلطات المحلية في منطقة تدعى كاميونكا سترومبلوا وهو الأمر الذي يبين أيضا أن التعايش المتناغم كان ممكنا للغاية بين اليهود والمسيحيين. وفقا لهذا الاتفاق، قام القضاة "بالسماح لليهود بالتمتع بجميع الحقوق والحريات الكاملة واعتبروهم جميعا مواطنين بمدن تتمتع بالحكم الذاتي." تعهد اليهود بالمشاركة في العمل لصالح المدينة والقيام ببعض نوبات الحراسة وتأدية نصيبهم من الواجبات إلى جانب المسيحيين أثناء الفيضانات وما يماثلها من أحداث. في المقابل، تعهد المسيحيون "بأن نحمي اليهود كجيراننا من اضطهاد وعنف النبلاء والجنود كذلك، وأن نحميهم وألا نسمح بأن يتعرضوا للظلم ... بما أنهم جيراننا."[٥]

بيد أنه لم تتأسس تلك المنظمات التي لم تضبطها قوانين صارمة أو ترتيبات حاسمة على يد المسيحيين فقط. منذ صدور الميثاق الأول للامتيازات، حظى اليهود بحق فض خلافاتهم الداخلية وفقا لمبادئهم الخاصة وإدارة شئونهم بأنفسهم. حتى القرن السادس عشر، تطورت الإدارة الذاتية هذه بطريقة لا مثيل لها في أي مكان آخر بأوروبا . كان لكل جماعة يهودية القهال الخاص بها، وهو جهازها الإداري الذي جمع ما بين السلطة السياسية والدينية في آن واحد. كان يتم اختيار كبار أعضاء القهال من أكثر أفراد الجماعة اليهودية وقارا – وعادة أيضا أكثرهم ثراء. كانت مهمتهم الإشراف على السلام والأمن والنظافة والالتزام بالتعاليم الدينية. لذا كان عليهم الإشراف على الحمامات العامة واستهلاك اللحوم ومراسم الدفن والنظام التعليمي. إضافة إلى ذلك، كانوا يضطلعون بمسئولية إدارة الأعمال الخيرية . أخيرا وليس آخرا، كان عليهم تحديد نصيب كل

[٥] فوكس وآخرون [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة]

فرد من الضرائب الذي يتعين على الجماعة اليهودية أن تدفعها ثم جباية هذه المبالغ.

أغرت الحاجة إلى ملء خزائن الدولة حكومات الكثير من البلاد مثل روسيا وبولندا وألمانيا – بأن تسمح بقيام أجهزة للإدارة الذاتية اليهودية. حتى في بواكير الفترة الحديثة حين تزايد التدخل في الحياة اليومية للمواطنين ، شكلت هذه الأجهزة ممثلين أكثر فاعلية لجباية الضرائب عن السلطات الحكومية.

لهذا السبب قرر الملك سيجيسموند الأول "الكبير" (١٤٦٧–١٥٤٨) توسيع نطاق الإدارة الذاتية لليهود ليتجاوز نطاق جماعاتهم. بين عامي ١٥١٨ و١٥٢٢ قام سيجسموند الأول بتأسيس أربع "مقاطعات" يهودية بوسعها اختيار رؤسائها وجباة ضرائبها. من أجل حل النزاعات بين اليهود من المقاطعات الفردية ، في عام ١٥٣٠ أمر الملك بتأسيس محكمة مؤقتة للتحكيم مقرها في لوبلن. بعد فرض ضريبة الرؤوس على اليهود في عام ١٥٤٩، قام ستيفن باثوري (١٥٣٣– ١٥٨٦) الذي كان قد توج ملكا على بولندا قبل هذا بثلاث سنوات بتعيين مجلس نيابي للسكان اليهود في المملكة البولندية الليتوانية كلها. اجتمع هذا المجلس الذي أطلق عليه اسم "مجلس البلاد الأربعة" أو "البرلمان اليهودي" للمرة الأولى في لوبلن عام ١٥٨١. كان من المزمع أن ينعقد هذا المجلس على الأقل مرة سنوياً لانتخاب أعضاء من بين صفوفه، "عامة اليهود": كبير المارشالات وكبير الحاخامات وكبير الكتبة وكبير أمناء الخزانة.

أصبح لليهود الآن مؤسسة غير مسبوقة تحت إمرتهم. تم السماح بإقامة "برلمانات يهودية" أخرى وأجهزة مشابهة، بيد أنها لم تحقق نفس الأهمية التي تحققت للبرلمان الذي تأسس في الاتحاد البولندي–الليتواني. في عام ١٦٢٣، تأسست برلمانات يهودية منفصلة لقسمي

المملكة لتيسير عملية جباية الضرائب. ظلت هذه البرلمانات قائمة حتى عام ١٧٦٤ وتم إحياؤها قبيل تدمير الدولة البولندية.

لم يقتصر الفاد بأي شكل من الأشكال على تولي أمور الضرائب، رغم أن هذه كانت مهمته الأساسية في عين الدولة. فقد كان ينظم التبرعات الخيرية وقام كذلك بتنظيم عمليات الإيجار وأصدر توصيات خاصة بالنشاط الاقتصادي. علاوة على ذلك، استجاب الفاد كما ذكرنا آنفاً للحقدٍ والآراء المعادية لليهود. على سبيل المثال أصدر الفاد الليتواني أمرا يجبر اليهود ارتداء ملابس متواضعة وحتى في حفلات الزفاف يمنع تقديم الهدايا بشكل واضح. كان يتعين أيضا تخفيض عدد الخدم المسيحيين عند اليهود لمواجهة الانتقادات. كان بوسع الفتيات الصغار– اللاتي تعدين الخامسة عشر من عمرهم ولم يتزوجن بعد– الحصول على الدعم لتحسين فرص زواجهن. توزعت مسئولية رعاية الأيتام – بما في ذلك إطعامهم وكسوتهم – على أفراد الجماعة اليهودية.

كان يتم إرسال الأولاد الذين – برحمة الرب– يتمتعون بموهبة الفهم والذي يجب أن يكون تعليمهم مميزا إلى المدرسة لغرض درس التوراة. أما هؤلاء الأولاد الذين لا يتمتعون بالقدرة على درس التوراة فكانوا يعينون خدما أو يتعلمون حرفة. يجب بذل كل الجهد لضمان أنهم لن يكرسوا أنفسهم لحياة الدعة. قدمت نفس هذه الرعاية للاجئين من بلاد أخرى. بعبارة اخرى، شملت قررات الفاد جميع مناحي الحياة اليهودية. علاوة على ذلك، تفاوض الفاد مع السلطات الحكومية و البرلمانات الإقليمية والبرلمان الحكومي ببولندا. كان يدعمه "المؤيد" أو *الشتادلان* الذي يتعين أن يقيم في مقر البرلمان البولندي (السيييم) وأن يمثل مصالح اليهود من خلال جماعات الضغط وتقديم الهدايا. كانت هذه طريقة تقليدية شائعة – غير

[٦] فوكس وآخرون [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة]

قاصرة على بولندا– لحماية الذات ضد الاضطهاد أو فرض المزيد من القيود .إلى جانب فرض الضرائب، كان يتعين ضمان مساهمة اليهود في أعمال الإعمار أو الدفاع المدني. تضمّن هذا اتفاقيات لبناء معابد يهودية محصنة. عندما كانت المدن تتعرض لهجمات من أعداء المملكة، غالبا ما كان اليهود يقفون جنبا إلى جنب مع المسيحيين على الأسوار في المعركة المشتركة. منذ بداية القرن السادس عشر اضطر اليهود لتشكيل وحدات الميليشيا الخاصة بهم، رغم أنهم كان بوسعهم الإفلات من هذا الالتزام بسهولة بمجرد دفع مبلغ من المال. فقط بعد عام ١٦٤٨، تعرض اليهود لضغوط أكبر في ها الصدد. فقد جعلت التعاليم الدينية من الخدمة العسكرية المشتركة بين اليهود والمسيحيين صعبة. بيد أن هناك بعض الحالات الفردية التي وردتنا أنباء عنها من القرنين السادس عشر والسابع عشر.

التعلم والثقافة

عملت الظروف المواتية نسبياً لليهود في بولندا على ازدهار المنجزات الثقافية والتعليمية أيضا. وصلت هذه المنجزات إلى أوجها في القرنين السادس عشر والسابع عشر، رغم أن تأثيراتها استمرت لما بعد ذلك. في الصدارة نجد الانشغال بالدين وممارسته. أسهم اختراع الطباعة في الانتشار السريع للثقافة. في عام ١٥٣٤، تم تأسيس أول مكتب طباعة يهودي في كراكو، جاء ذلك بعد تأسيس مكتب طباعة يهودي في براغ بوقت قصير. ثم تم تأسيس المركز الفكري لليهودية. نشرت الكتب باللغة العبرية للقاريء المتعلم. في الوقت ذاته نشرت الكثير من الأعمال باللغة اليديشية لتصل إلى عامة اليهود. في ذاك الوقت، كانت اليدشية تختلف قليلاً في أوروبا الشرقية عنها في أوروبا الغربية، لذا كان التبادل يتم مباشرة. كانت من أكثر الأعمال انتشارا تلك التي تتناول الأساطير الدينية

والتفسيرات المبسطة للتلمود إلى جانب الحكاياتٍ وقصصٍ الفرسان الرومانسية. رغم أن اليهوديات لم يكن يتلقين تعليما حيدا على وجه العموم، كان من بين أهم الكتّاب في تلك الفترة كاتبة يهودية تدعى ربيكا ابنة الحاخام مايِر تيكتينر من تايكوسين (في مقاطعة بيالستوك شمال بولندا). لم تكتبِ ربيكا فقط أغان دينية بل أيضا كتابا لوعظ السيدات اليهوديات. نشر الكتاب عام ١٦١٨ بعد وفاتها وتمتع بشعبية هائلة. مثّلت المؤلفات الحاخامية التي تضمنت دراسة وتفسير التلمود ذروة التعلم اليهودي. كانت هذه المؤلفات تناقش أسئلة أساسية تتعلق بالفهم الديني غير أن تفسير التلمود كان ذا صلة بالحياة اليومية.[٧]

اشتملت المؤلفات الحاخامية ليهود بولندا على طريقتين متعارضتين للتفسيرٍ. لعب حاخام كراكو جيكوب بولاك (١٤٦٠–١٥٤١) دورا هاما في تأسيس طريقة *البيلبول*. تتخذ هذه الطريقة– التي يعني اسمها "الفلفل"– شكل لعبة جدلية بها فرضية وفرضية مضادة وفرضية مؤلفة من الاثنتين وتستخدم لمعالجة المشاكل الجدلية. بطريقة ما، تعبر طريقة البيلبول عن حقيقة أن الدين اليهودي لا يعرف المسلمات– وقد لاقت المحاولات لجعله كذلك الفشل في نهاية الأمر. فالبيلبول نظام مفتوح يميل إلى النقاش والحوار. من خلال هذه الطريقة، يحاول المرء أن يُقدّر المعلمين العظام حق قدرهم وأن يتبع أقوالهم حتى في حالة تعارض هذه الأقوال مع بعضها البعض. في كثير من الحالات كانت هذه الطريقة تستخدم فقط كتدريب يستخدم موضوعات عشوائية أو ما كانت في الواقع مسائل خلافية في الظاهر فقط. في مثل هذه الحالات كان الأمر يعتمد على "سرعة البديهة" وحسب. بطبيعة الحال قد يؤدي هذا بسهولة إلى مجرد الجدل اللفظي. نتيجة لذلك، اعترض الكثير من الحاخامات– مثل حاخام

[٧] أجنون وآخرون [كتاب اليهود البولنديين]

لوبلن سلمون لوريا (١٥١٠– ١٥٧٣)– على البيلبول وأقروا بدلاً منه طريقة عقلانية تركز بشكل حاسم على موضوع النقاش. رغم ذلك، ظلت طريقة البيلبول هي السائدة لوقت طويل.

جدير بالذكر أنه من بين أعظم معلمي هذه الفترة موسي إسيرليس (١٥٢٠– ١٥٧٢)، الذي تزعم اليشيفا (المدارس التلمودية العليا) التي أسسها جيكوب بولاك في كراكو وألف الكثير من الأعمال الهامة عن الدين والفلسفة إلى جانب المجالات العلمانية للدراسة. جاء كتابه "المابا" (غطاء المائدة) تعليقا على أحد الأعمال الرئيسية في المؤلفات التلمودية وهو "شولحان آروخ" أو "المائدة العامرة" وكان له تأثير خاص على معاصريه. "الشولحان آروخ" عمل مرجعي طويل للشريعة اليهودية كتبه حاخام أدرنة ومدينة صفد بالجليل جوزيف كارو (١٤٨٨– ١٥٧٥)، وقد صاغ موسى إسيرليس هذا المؤلف بما يتلاءم مع حاجات اليهود في شرق ووسط أوروبا وجعل منه رفيقا يعتمد عليه في جميع الأسئلة الحيوية. في فترة الإصلاح ومناهضة الإصلاح، بدأت تفاسير التلمود تمثل اليهودية بشكل إيجابي مقارنة بالعقيدة المسيحية. جاء هذا نتيجة المناظرات التي سبقت هذا خاصة تلك بين يوم توف ليبمان من ميلهاوزن الذي عاش في كراكو ما بين عامي ١٤٠٠ و١٤٢٥. وقد نشرت أهم أعماله عام ١٦٤٤. كانت من المؤلفات الشهيرة مناظرات إسحاق تروكاي (١٥٣٣– ١٥٩٤)، فقد أشار إلى التناقضات فيما بين الكاثوليكية وكيفية تصرف الكاثوليك. أشعل هذا فتيل مناقشات عنيفة استمرت إلى ما بعد وفاته. وقد امتدح الموسوعيون الفرنسيون خاصة فولتير مناقشاته الثاقبة وقد اتخذه الأخير مثالا نموذجيا في مقاله النقدي حول المسيحية.

إن مجرد ظهور هذه المناظرات اليهودية وحدوث الخلافات العلنية بين اليهود والمسيحيين لهو مؤشر آخر على جو التسامح الذي تمتع به

اليهود في بولندا . في غرب أوروبا لم يكن هذا ليكون ممكناً في ذاك الوقت. فقط بعد تكثيف حركة مناهضة الإصلاح تغير هذا الوضع.

يمكن العثور على مجموعة من أفكار التنوير المبكرة في المؤلفات الحاخامية. لذا فليس مثيرا للدهشة أن اليهود لعبوا ايضا دورا هاما في العلوم الدنيوية القائمة على المنطق وسعوا للتوفيق بينها وبين الدين. أفرزت الجماعة اليهودية في بولندا عددا من الشخصيات الهامة خاصة في علم الرياضيات والميكانيكا والفلك والطب. وصل التأريخ إلى ذروته على يد ناثان هانوفر من زاسلو (توفي ١٦٨٣) . كانت مهمته في كتابه التاريخي "المستنقع العميق" الذي نشر في فينيسيا عام ١٦٥٣ أن ينقل إلى الأجيال القادمة معاناة اليهود البولنديين أثناء مذابح القوزاق عام ١٦٤٨ (ارجع للأجزاء التالية)

لم تقتصر المعرفة اليهودية على الطبقة العليا القليلة. منذ القرن السادس عشر فصاعدا، اضطر اليهود لإرسال أبنائهم الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة والثامنة إلى مدرسة القاهال. هناك كانوا يدرسون العبرية ويقرأون الكتاب المقدس ويتعلمون العمليات الحسابية الأساسية الأربعة ومبادئ الأخلاق. في المدرسة الثانوية التي كان يلتحق بها الأولاد ما بين الثامنة والثالثة عشرة من عمرهم كانوا يدرسون التلمود وتفسيراته. كان أساس العملية التعليمية الاستظهار. لم يسمح للفتيات الالتحاق بهذه المدارس، بل كانوا يتلقون تعليمهم بالمنزل وفي الأسر الثرية كن يحظين بمساعدة مدرس خاص. كان أهم شيء بالنسبة للفتيات الاستعداد لواجباتهم المنزلية التي سيقومون بها في المستقبل لا الدراسة. بالنسبة للرجال، غالبا ما كانت الدراسة تجلب المكانة الاجتماعية. كان الهدف الأسمى لكل أب يهودي تزويج ابنته من شاب متعلم– مهما كان الشاب فقيرا. نظر الكثير من الشباب إلى التعليم ودراسة التلمود كهدف حياة. من ثمّ،

كان ينبغي أن يعثر هؤلاء الشباب على عائل بطريقة ما بين أسرهم أو المجتمع. كانت هذه الدراسة تتم في اليشيفوت (جمع يشيفا) وهي المدارس التلمودية العليا. هنا كان يجلس الشباب طوال النهار في تجمعات طلابية ينشدون فقرات من التلمود متأرجحين للأمام وللخلف كي يساعدهم هذا على التركيز. كانوا عادة ما يناقشون الفقرات الصعبة في مجموعات باستخدام طريقة البيلبول. كان المستوى التعليمي ليهود بولندا أعلى في القرن السادس عشر عنه في القرن الثامن عشر. كانت هناك يشيفا في كل المدن الكبيرة وكانت اليشيفوت البولندية تحظى بعميق الاحترام في جميع أرجاء العالم اليهودي. كتب ناثان هانوفر يقول:

لم يكن هناك في أي مكان بين بني إسرائيل المتفرقين تعلماً بالقدر الذي وُجد ببولندا. كانت توجد يشيفا في كل جماعة يهودية وكان عميد هذه اليشيفا دائما ما يلقى مقابلاً جيدا كي يعمل دون هموم ويجعل من التدريس وظيفةً له. ... كانت كل جماعة تعول الشباب وتمنحهم مصروفاً أسبوعيا كي يستطيعوا الدراسة مع الحاخامات باليشيفا.[٨] مع بداية الحروب والدمار منذ منتصف القرن السابع عشر، تغير الموقف بشكل جذري. قبل هذا، أرسل القليل من أثرياء اليهود أبناءهم إلى المدارس العلمانية بدلاً من مدارس القهال. رغم التمسك الصارم بالدين، كانت ثقافة اليهود في بولندا لا تزال غير منفصلة بالكامل عن الثقافة المحيطة. تقابل اليهود بالمسيحيين واحتفلوا معهم وارتدوا ملابس كملابسهم. نادرا ما تم الالتزام بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية المتعلقة بالملابس لوقت طويل. يمكننا أن نفترض أن الرداء اليهودي التقليدي المميز تطور تدريجيا منذ القرن السادس عشر بما فيه القفطان والطاقية السوداء مضاف إليهما اللحية الطويلة والسوالف. كان تصميم مساكن اليهود يشبه منازل المسيحيين

[٨] فوكس وآخرون، [اليهود البولنديون، تاريخ وثقافة]

باستثناء بعض الخصائص المميزة المتعلقة بالدين كما كانوا يتميزون بالشعائر الدينية المختلفة والأعياد المختلفة. لم يكن هناك بعد فصل كامل لليهود في شرق وغرب أوروبا.

تظهر الثقافة المادية بشكل أساسي في بناء المعابد اليهودية وتصميم المصنوعات المقدسة. كان التزيين باستخدام صور الحيوانات والنباتات يحظى بأهمية خاصة، حيث أن تصوير البشر محرم في الديانة اليهودية. يعد أقدم أثر للعمارة اليهودية في بولندا المعبد القديم في مدينة كاسيميرز، إحدى ضواحي كراكو. تم بناء هذا المعبد بحلول نهاية القرن الرابع عشر على نسق بعض المعابد في وورمز وريجينسبرج وبراغ، وتم ترميمه عام ١٥٧٠. في المناطق الشرقية بالاتحاد البولندي- الليتواني، كانت تبنى معابد في ضخامة القلاع. كما انتشرت أيضاً، رغم أنها سادت فقط منذ القرن الثامن عشر- المعابد الخشبية التي تحتوي على جداريات رائعة. وصلت النقوش على أبواب المعابد وشواهد القبور إلى مستوى عال من البراعة الفنية. هنا، كما هو الحال في عدد كبير من الحرف الفنية، يمكن تمييز وجود علاقة وثيقة بين الفن اليهودي والفن غير اليهودي في بولندا وفي وسط وغرب أوروبا.

اليهود كوسطاء بين القرى والمدن

بحلول القرن السابع عشر، نجح اليهود في الحصول على وضع متميز في بولندا لا فقط من حيث الثقافة وإنما على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. لقد اضطلعوا بدور الوسيط بين الريف والمدينة. من المؤكد أن هذه المهمة كانت من نصيب اليهود بالبلاد الأخرى: لقد كانت "الخاصية أو الصفة المميزة لليهود في التاريخ الأوروبي."[٩]

[٩] جورجن هينسيل [أمة بولندية من النبلاء والوسطاء اليهود ١٨١٥- ١٨٣٠. حول المحاولة الفاشلة لتحرير اليهود في مجتمع غير متحرر] ، تاريخ شرق أوروبا المهجور ٣٢ (١٩٨٣)، من ص. ٧- ٢٢٧

أن اليهود في بولندا مارسوا احتكاراً فعلياً وقد أكدت المظاهر الملموسة لذلك الإحتكار على الطبيعة الاستثنائية لهذا الوضع. كما ذكرنا آنفا، غالبا ما قام اليهود الأثرياء باستثمار أرباحهم في العقارات المؤجرة التي كانوا يؤجرونها من الباطن للفقراء من أفراد أسرهم؛ تلك الأرباح التي جنوها من جباية الضرائب والرسوم الجمركية ومكوس الطريق وإدارة الطواحين ومعامل تقطير الشراب ومصانع الجعة والحانات وحتى العقارات. لقد دخل اليهود في ضرب من ضروب التعايش الحقيقي مع الطبقة العليا للنبلاء التي كانت من حيث الوظيفة الاقتصادية على علاقة وثيقة ببقية أفراد المجتمع لدرجة أنهم كانوا يحمون اليهود من أعدائهم. في وقت لاحق كانت تتردد عبارة : "جدي لأمي الذي لم يعد "يملك قطعة أرض" دائما ما كان يقول "لا يمكنك أن تكون نبيلاً بولندياً بحق دون امتلاك يهودي!" من جهة أخرى، جدي لأبي الذي لازال "يمتلك قطعة من الأرض" كان يرى أن "المرء يصبح أكثر نبلاً إن كان يملك كلاً من قطعة أرض ويهودي!"[١٠] بوصفهم مستأجرين أو مديرين لأملاك النبلاء، دخل اليهود في اتصال مباشر مع الفلاحين، على سبيل المثال في إدارة الطواحين وفوق كل هذا في إدارة الحانات. وحيث أنهم كانوا في ذاتٍ الوقت على صلة بالتجار اليهود، سريعا ما نظموا نشاطا اقتصاديا ككل واحد. كمديرين ومستأجرين، أعطى اليهود تعليمات بخصوص إدارة الضياع ومنتجاتها. كأصحاب حانات، كانوا يبيعون منتجات الضياع – لا فقط المشروبات الروحية– للفلاحين أو كانوا يوفرون "مركزا تجاريا" للكثير من المفاوضات التجارية. كان الباعة الجائلون والبقالون يوفرون احتياجات الفلاحين من السلع من المدن غير أنهم كانوا يبيعونهم أيضا منتجاتهم. غالبا ما حاز اليهود من أصحاب الحانات وصغار التجار ثقة الفلاحين ثم عاونوهم في تدبير شئونهم

[١٠] ميشال ستيرزيمسكي، [الحوار غير المنته، مذكرات] (لايبزج، ١٩٨٥)

ولم يقتصروا على الأمور التجارية فقط. كقاعدة، كان التجار اليهود هم من يشترون الفائض من منتجات أراضي النبلاء ويبيعونها في المدن. في الاتجاه الآخر، كانوا يجلبون البضائع من المدن والتي غالبا ما يحصلون عليها من حرفيين يهود بالمدن.

بهذه الطريقة، صار هناك نظام تدوير اقتصادي قائم بين الريف والمدينة داخل الجماعة اليهودية وبصفة عامة داخل المجتمع البولندي- كان اليهود يربطون الفلاحين والنبلاء وأهالي المدن ببعضهم البعض. لم تخل هذه المنزلة المحورية لليهود على وجه اليقين من الصراعات. فبعيدا عن هجمات الكنيسة الكاثوليكية، كانت العلاقات بين النبلاء الصغار الغارقين في الديون والمواطنين المسيحيين المنافسين من جهة والفلاحين من جهة أخرى غاية في التعقيد. حتى حين كان الفلاحون يضعون ثقتهم باليهود وائتمنوهم على تدبير شئونهم، تصادم نمطان للحياة. حدد "الاقتصاد الأخلاقي" (إ. ب. طومسون) للفلاحين أفكار معينة عن "الشرف" والإنتاج ورثوها عن أسلافهم. في الصدارة، جاءت الحاجة إلى تأمين الضروريات اليومية والرزق اليومي بدلا من التوجه نحو جني الربح. بيد أن دافع الربح كان يميز النشاط الاقتصادي لليهود. لأن اليهود كانوا منخرطين بشكل كبير في المعاملات المالية، كانوا يعتبرون "شرهين للمال" أو بصفة عامة جشعين. بوصفهم "رواد" أو حتى "مستعمري التقدم"، دخل اليهود عالم الفلاحين كغرباء عنه. علاوة على ذلك، حين كان اليهود يجبون الضرائب أو يقدمون مشروب الشنابص، كان ينظر إليهم كأدوات للسيد الإقطاعي. بهذه الطريقة انخرط اليهود في الصراعات الاجتماعية التي نشبت بين الفلاحين والسادة الإقطاعيين. حين أجج القساوسة الكاثوليك لهيب الصراع الديني وشهروا بالحانات اليهودية كملجأ للشيطان أو حتى تمسكوا باتهام اليهود بجرائم الدم- وهي المزاعم التي حققت الهدف المرجو منها لأن الشعائر الدينية اليهودية

بدت سرية لغير اليهود– غير أن العلاقات الجيدة بين الفلاحين واليهود على الأصعدة الأخرى تحولت بسرعة إلى عداء وعنف. نتيجة لذلك، ورطت وظيفة الوسيط في الوقت ذاته اليهود في هذه الصراعات اجتماعية.

عصر ذهبي لليهود في بولندا ؟

في المجمل، شكل اليهود في بولندا مجتمعاً مزدهراً. كتب موسى إسيريلس يقول: "من الأفضل كسرة من الخبز الجاف في سلام، كما هو الحال في تلك المناطق [حول كراكو] التي لا تتنزل فيها علينا كراهيتهم كما تتنزل في الأراضي الألمانية."[١١] في رأي ناثان هانوفر: "الأمر المعروف عامة لا يحتاج إلى دليل: لم يكن هناك أبدا كل هذا القدر من التوراة في جميع أراضي الدياسبورا كما كان في بولندا."[١٢] غالبا ما كان يقال مقارنة ببلدان أخرى وبفترات زمنية لاحقة أن اليهود عاشوا في "عصر ذهبي". ترجع اصول المثل الجاري الذي يقول: "جمهورية بولندا جحيم الفلاحين ومطهر أهالي المدن وجنة النبلاء وفردوس اليهود."[١٣] إلى القرن السادس عشر. من الأمثلة التي تاوضح المكانة التي حازها اليهود قصة الحاخام سول (شول) وال (حوالي ١٥٤٥– ١٦١٧) وهو جابي للرسوم الجمركية والضرائب أصبح مستشارا للشخصيات الهامة في المملكة. طبقا لإحدى الأساطير الشائعة، في عام ١٥٨٧ حين تم انتخاب ملكين في نفس الوقت بناخبين مختلفين– ألحق سيجسموند الثالث في النهاية الهزيمة بماكسميليان النمسا مرشح أسرة هابسبرج الحاكمة– وقد أصبح

---

[١١] نيتزر، "هجرات"، ص. ٤٤

[١٢] المرجع السابق، ص. ٤٧

[١٣] جورج ك. هوينش[البنية الاجتماعية والإصلاح السياسي، بولندا في عهد ما قبل الثورات] (كولونيا- فيينا، ١٩٧٣)، ص. ١٨٠. في وقت متأخر عام ١٩٢٤ استمع ألفريد دوبلين إلى الرواية التالية من الكلمات التالية: "بولندا، جنة النبلاء، فردوس اليهود وجحيم الفلاحين." ([رحلة في بولندا]، [ميونيخ ١٩٨٧]، ص. ٧٣). من المؤكد أن هذه الكلمات تعبر عن موقف مناهض لليهود ولكن يمكن فهمها على أنها تبين الوضع المواتي نسبياً لليهود.

شول ملكاً لليلة كاملة.[١٤] رغم أن هذا الفردوس كان مترعاً بالبؤس في الغالب، ظلت بولندا مصدر جذب عظيم لليهود، وهي الحقيقة التي تظهر جليا في تزايد عدد السكان من اليهود. في عام ١٥٠٠، كان يوجد حوالي ١٨.٠٠٠ يهودي في بولندا و٦.٠٠٠ في ليتوانيا– وهو ما يوازي أقل من واحد بالمئة من إجمالي عدد السكان، بينما في عام ١٦٤٨، ارتفع هذا العدد ليصل إلى ٥٠٠.٠٠٠ يهودي وهو ما يوازي ٥٥% من إجمالي عدد السكان. توافد معظم المهاجرين إلى بولندا من الإمبراطورية الألمانية. في الوقت ذاته، استقر بعض اليهود السفاردة في زاموسك في الجنوب الشرقي للوبلن. عاش حوالي ربع أو خمس اليهود في القرى بينما أقام معظمهم بالمدن. في هذا الصدد، برزت روسيا الحمراء حيث عاشت نسبة تتراوح بين ٣٠ إلى ٤٠% من سكانها اليهود في المدن، وتليها بولندا الصغرى بنسبة تتراوح ما بين ١٠ إلى ١٥% وبولندا العظمى بنسبة ١٠%. في مازوفيا، رغم الحظر واسع النطاق، كان ١٠% من السكان اليهود يعيشون بالحضر.

في هذا الوقت، كانت الأنشطة الاقتصادية لليهود أيضا قد وصلت إلى ذروتها. في اتحاد لوبلن في عام ١٥٦٩، أعيد توزيع أراضي المملكة المختلفة بين بولندا وليتوانيا. أصبحت روسيا البيضاء بالجنوب وأوكرانيا وبودليسيا وفولينيا وبودوليا تابعة للأراضي البولندية. بدأ أقطاب السكان على الفور في استعمار هذه المناطق التي كانت نامية من الناحية الاقتصادية والسياسية. من أجل هذا ظهرت الحاجة إلى اليهود إما كأصحاب رؤوس أموال أو كمستأجرين أو مستأجرين من الباطن. على وجه الدقة، كانت الأرندة– التأجير– صفة مميزة هنا. بدأت هجرة واسعة النطاق لليهود نحو الشرق. في عدد من المدن شكل اليهود غالبية السكان. أجبر السكان الفلاحين الموجودون بالفعل على أن يصبحوا جزءا من

[١٤] أجنون، وآخرون، [كتاب اليهود البولنديين] ، ص. ٢١- ٣١.

النظام الإقطاعي البولندي. وهو العملية التي انخرط فيها اليهود بوصفهم "أدوات الجور الإقطاعي". [١٥] في أوكرانيا انخرط اليهود في صراع أكثر صراحة من الصراعات الدائرة في المناطق الغربية لأن المشاكل الاجتماعية كانت قد عقدتها المشاكل الدينية والقومية. وقع اليهود في حبائل الصراعات القائمة بين الفلاحين والسادة الإقطاعيين من ناحية، وبين الكاثوليك والأرثوذوكس والكاثوليك الشرقيين من جهة وبين البولنديين والأوكرانيين من ناحية ثالثة. يبدو أنهم كانوا على دراية كاملة بوضعهم الخطير. تحدثت الكثير من المصادر عن أسلحتهم أو عن معابدهم المحصنة ثم حلت الكارثة العظمى.

[١٥] هيرمان جرايفي [اليهود، لمحات من تاريخهم في أوروبا العصور الوسطى وأوروبا العصر الحديث] (درامشتات، ١٩٨٠)، ص. ١٢٤

obeikandl.com